الفصل الأول

ثنائية الأنا والآخر فى الرواية والسينما

تمتاز الروايات العربية، والتى تم تحويل عدد كبير منها إلى أفلام سينمائية، بتجسيد ثنائية الأنا والآخر عبر مجموعة من الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء أكانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح.. و يقسم الناقد السورى الدكتور جميل حمداوى أنمـاط الرؤى والصور فى روايات الأنا والآخر على النحو التالى:

١- الرؤية الانبهارية:

نعنى بالرؤية الانبهارية تلك النظرة الأولى للأنا وهى تتأمل منجزات الآخر المماثل أو المخالف، تلك النظرة الحائرة القائمة على الاندهاش والتعجب والاستغراب والانبهار بحضارة الغرب، والافتتان بتقدمه وازدهاره فى شتى العلوم والفنون والتقنيات والمعارف والآداب. وغالبا ما تكون تلك النظرة فى البداية فطرية ساذجة أو نظرة واعية نسبيا بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب أو بين المكان الأصل ومكان الغواية والجذب والافتتان، وذلك بسبب صدمة الحداثة أو صدمة الاستعمار، والتى تفرز بشكل جلى التناقضات الهائلة والتباين الشاسع والهوة الفاصلة بين عقلية متخلفة وعقلية متقدمة.

ومن النصوص الروائية العربية الأولى التى صورت جدلية الأنا والآخر من خلال رؤية انبهارية استعجابية واستغرابية، نستحضر رواية رفاعة الطهطاوى: «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، والتى هى بمثابة رحلة يقوم بها طالب مصرى إلى باريس فى أواخر القرن التاسع عشر، فيصف جغرافيتها، ثم ينبهر بحضارتها وعلومها وفنونها وأنظمتها السياسية والدستورية والإدارية، ثم يعجب بسكانها وأخلاقهم ومنازلهم وصحتهم وتأنقهم وعاداتهم. ويعنى هذا أن العمل الأدبى والإبداعى الذى كتبه رفاعة الطهطاوى عبارة عن رحلة روائية تعليمية وتثقيفية تطرح رؤية انبهارية قائمة على تمجيد العقلية الفرنسية، مع الإشارة فى نفس الوقت بالإحالة والتعريض والتلويح إلى تخلف العقلية الشرقية، وانحطاط الواقع العربى الإسلامى على جميع الأصعدة والمستويات.

وعلى الرغم من هذا، «فمن التجنى على كتاب رفاعة الطهطاوى أن نقيسه بالرواية، وقيمة الكتاب من الناحية الفكرية أكبر بكثير من الناحية الأدبية، لأنه يكشف لنا ولأول مرة عن احتكاك عقلية أزهرية متفتحة بعلوم الأوربيين وبعض مظاهر حياتهم الاجتماعية، لمؤلف وجد فى نفسه الجرأة على الاعتراف بتقدم الغربيين فى العلوم برغم كونهم لا ينتمون إلى الإسلام، كما ترجم كثيرا من المواد فى دستورهم وأعجب بنظام الحكم عندهم. برغم ماكان يقدمه من تبريرات، ثم وجد الجرأة على نشر كتاب فى مجتمع يحكم حكما استبداديا ولا يجد فضيلة إلا وهى عند المسلمين وحدهم، مجتمع النصف الأول من القرن التاسع عشر».

ويمكن الحديث عن مؤلف تاريخى سبق إلى عقد مقارنة بين العقلية الشرقية والغربية كما نجد ذلك عند المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن حسن الجبرتى فى كتابه «فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»، والمعروف بتاريخ الجبرتى، وذلك أثناء حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر. ونجد هذه الرؤية الانبهارية بالحضارة الغربية وعلومها ومعارفها أيضا فى رواية على مبارك «علم الدين»، وتأخذ طابع رحلة سياحية إلى فرنسا للاغتراف من العلوم والمعارف والآداب الموجودة لدى الفرنسيين.

وإذا كان هؤلاء الروائيون الرحالة الأوائل المنبهرون كثيرا بحضارة الغرب عشقا وفتنة ودهشة، يوفقون غالبا فى نصوصهم السردية بين الحضارة الغربية والتراث العربى المشرقى، فيدافعون إلى حد ما عن القيم الروحية الإسلامية، فإن الكاتب فرح أنطون فى روايته «الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث»، قد انبهر بالحضارة الغربية أيما انبهار، مرجحا كفتها على كل ما لدى العرب من إرث ثقافى وحضارى وقيمى.

٢- الرؤية الحضارية:

بعد الرؤية الانبهارية بتفوق الغرب، والاعتراف بتقدمه علميا وفنيا وتقنيا فى المرحلة الأولى من فترات القرن التاسع عشر الميلادى، نجد رؤية أخرى ستتشكل روائيا وفنيا وإبداعيا فى العقود الأولى من القرن العشرين، وذلك مع جيل من الكتاب الذين سافروا إلى الخارج لطلب العلم كطه حسين، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقى، ويوسف إدريس، وسهيل إدريس.. وآخرين بيد أنهم لم ينبهروا بالغرب إلى درجة السذاجة السطحية والاستغراب الخارق الفاتن، بل تنبهوا إلى أسباب

تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا وفنيا، ولكنهم تنبهوا أيضا إلى قيمة الشرق، وتميزه على مستوى القيم الدينية والروحانية، والدفاع عن أصالته وعاداته وتقاليده وحضارته وشرقيته.

والمقصود من كل هذا أن كثيرا من المثقفين العرب فى بداية القرن العشرين قد انبهروا أيما انبهار بحضارة الغرب إعجابا وافتتانا وغواية، فانساقوا وراء نزواتهم الشعورية واللاشعورية.

وبالتالى، كانت رؤيتهم للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع الغريزى لكل المكبوتات الظاهرة والدفينة. ولكنهم سرعان ما استيقظوا من سباتهم، وذلك ليتعرفوا حقيقة الغرب المادى باعتباره فضاء حضاريا مخالفا عقديا وقيميا ودينيا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيا عن الفضاء الشرقى الروحانى. وأن لكل بيئة مقوماتها الخاصة، فالشرق شرق والغرب غرب. وهذا ما عبرت عنه الكثير من الروايات العربية بشكل واضح وجلى كرواية «الحى اللاتينى» لسهيل إدريس، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، و «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«الأيام» لطه حسين، و «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى.

ومن ثم، تصور رواية «أديب» لطه حسين، ذات الطابع البيوجرافى، الصراع الحضارى بين الشرق والغرب، والتقابل بين عالم الكبت وعالم التحرر، ورصد التفاوت الملحوظ بين عالم التخلف وعالم التقدم، والمقارنة بين الانحطاط الحضارى والرقى المدنى. لذلك، كان ينظر الأديب إلى مصر وزوجته حميدة بنظرة تغاير نظرته إلى فرنند وفرنسا. بيد أن الأديب سيضيع فى فرنسا، ويتيه فيها ضلالا وتيها وانحرافا،

فيفشل فى الحصول على الشهادة التى تؤهله علميا ومعرفيا، وذلك بسبب انبهاره بالقيم الأوربية الجديدة (الحرية – عشق المدن – تحرر المرأة – الإباحية). فلم يأخذ الأديب من الغرب سوى القشور وسفاسف الأمور، والانغماس فى ملذات الحياة ومطايبها ولذاتها إلى أن فقد الحياة وصلته بأسرته السعيدة فى مصر.

إذا، هناك جدلية وتفاوت فى هذه السيرة الروائية بين هذين الفضاءين المتقابلين، حتى إن الأديب لم يرتض العودة إلى بلده لما قامت الحرب على فرنسا، وكان يتمنى الدفاع عن هذا البلد فى وجه النازية؛ لأن هذا البلد يقترن فى ذاكرته بالحب والحرية والإشباع الشبقى، فى حين يقترن بلده بالكبت والحرمان وصعوبة المسئولية.

لكن طه حسين فى روايته «الأيام» سيستعيد طفولته بطريقة استرجاعية قائمة على التذويت والتذكر والتركيز على أهم المحطات الحياتية التى كانت لها تأثير كبير فى نفسية الكاتب. بيد أن أهم مرحلة فى الرواية هى مرحلة سفره إلى فرنسا لمتابعة دراساته الجامعية العليا قصد تحضير الدكتوراه، فينبهر بباريس مدينة الجن والملائكة، فيصور معالمها الفنية والجمالية. ثم، يرصد لنا حضارة فرنسا فى ميادين العلوم والمعارف والآداب والفنون من خلال رؤية حضارية تقابل بين مدنية الغرب المتقدمة وتخلف العقلية الشرقية. وبالتالى، يرى طه حسين أن الغرب هو مفتاح التقدم الحضارى والازدهار العلمى والفنى ومستقبل الحضارة المصرية، وذلك مع مراعاة خصوصية عوائد الشرق وأعرافه وتقاليده وقيمه الدينية الأصيلة.

أما توفيق الحكيم فى روايته الرومانسية العاطفية العذرية «عصفور من الشرق»، فقد صور هذه الرؤية الحضارية المتفاوتة بين شرق متخلف وغرب متقدم، إلا أنه يعتبر الغرب فضاء للماديات والتفسخ الأخلاقى والانحطاط القيمى. بينما الشرق على العكس من ذلك، فهو رمز للروحانيات الطاهرة والقيم الدينية الفضلى والمثل العليا الأصيلة، والتى يصعب جدا تغييرها بالمعايير الكمية والمبادئ المادية الاستعمالية. وترد هذه النظرة الحضارية التقابلية جلية إلى حد ما فى كتابات جبران خليل جبران كما فى كتابه الفلسفى القيم «النبى»، والذى اعتبر الشرق بمثابة حل روحانى للغرب المادى البرجماتى (المنفعى).

وهكذا، تعرض رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم: «مفارقات تقوم على تقابل الشرق بمقوماته مع الغرب بمقوماته، فى قصة تتصل بحياة الكاتب فى فرنسا. فمحسن الشرق يستغرق فى التأمل، وتستهويه التماثيل والموسيقى، ويحب حبا مثاليا. ولكنه يصطدم بألوان الحياة الغربية الواقعية حين يتصل بأندريه فيتجه إلى الواقع وإلى مشاكل العمال، ثم بإيفان الروسى فيبسط صور الشرق والغرب، ومحاسن كل منهما وعيوبه، ويرسم لكل منهما مثلا أعلى، ثم يرى ما فى الحب من مادية حين يتعرف بصاحبته بعد تقديم هداياها، ويختلط بالفنانين فتتحول نفسه الشرقية بالتدريج، إذ يحبو نحو المثل العليا فى الفن وفى الدين وفى الموسيقى من ناحية، ويتصل بالمشاكل العملية من ناحية أخرى، فيناقش مسائل الفراغ والمطالعة، وبعد الأزمة النفسية الأولى يخلق خلقا جديدا، ويستمد قوته من مواطن القوة فى رسالة الشرق، ويبتعد عن مواطن الزلل فى كيان الغرب..».

ومن جهة أخرى، تصور رواية «الحى اللاتينى» لسهيل إدريس العلاقة بين الشرق والغرب عبر تشغيل جدلية الذكورة (الشرق) والأنوثة (الغرب)، حيث تصبح المرأة هنا المحك الأساسى لهذه العلاقة الثنائية، وتتحول إلى رمز إنسانى دال. فبطل الحى اللاتينى هو الأنا أو الشرق، بينما عشيقته جانين مونتيرو هى بمثابة رمز للآخر أو الغرب. لكن العلاقة بينهما تنتهى بالفراق والانفصال على الرغم من رباط الحب الصادق الذى كان يجمع بينهما، والسبب فى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب. ويعنى هذا أن بطل الحى اللاتينى لم يستطع الانسلاخ عن شرقه وجذوره وما نشأ عليه من أعراف وتقاليد. فقد استوعبت جانين جيدا هذا الاختلاف الحضارى على الرغم من أن عشيقها قرر الزواج بها، وذلك بعد أن عاتبه ضميره الحى حينما أنكر نسبة الجنين إليه، وأراد أن يقتاد بصديقه المناضل فؤاد، ويكون مسئولا وملتزما بدوره الوجودى.

وهكذا، يبدو هذا الاختلاف بمثابة صراع بين القيم المادية والقيم الروحية، وصراع بين الدين والإلحاد، وصراع بين الأخلاق والإباحية، وصراع بين الرجولة الشرقية والأنوثة الغربية. وقد يعكس هذا الصراع التفاوت الحضارى بين غرب التقدم والعلم والتكنولوجيا وشرق التخلف والجهل والخرافات والأساطير، كما عكست ذلك بوضوح رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ورواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم.

إذا، هناك فى الرواية صدام اجتماعى وأخلاقى وحضارى، وهذا ما تعبر عنه جانين مونتيرو فى مذكراتها إلى فتاها وعشيقها الأسمر الشرقى، بعد أن رفضت الزواج منه، وذلك بسبب القيود الاجتماعية

والفكرية والعقائدية التى تطرحها ثنائية الشرق والغرب: «أنا الآن على يقين من أن اجتماعنا أمس، فى غرفتى المسكينة، فرض على فرضا أن أرد فكرة الاقتران بك. لقد اجتمعت أمس بإنسان لا أعرفه. بشاب أنكرته، وكأننى ما لقيته من قبل قط. كان شعورى بعد أن تركتنى يا حبيبى. لقد استعدت ما حدثتنى به عن المستقبل، وعن آمالك، وعن حياة الصراع الذى أنت مدعو إلى أن تعيشها فى بلادك، فوجدت أن دنياك التى تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلى. إنك الآن تبدأ النضال، أما أنا فقد فرغت منه، ومات حس النضال فى نفسى. لقد عجزت أن أقاوم أطول مما قاومت، فسقطت ضعيفة مهيضة الجناح.. أما أنت فقد قرأت أمس فى عينيك استعدادا طويلا، طويلا جدا للمقاومة والصراع. وقد كنت قرأت مثل ذلك فى عينى صديقك العزيز فؤاد، ولكن يخيل إلى أن الجذوة التى كانت تطل من ناظريك هى أشد التهابا وإشعاعا من جذوة فؤاد، تلك التى حدثتنى عنها مرة فى معرض الإعجاب.إنك إنسان جديد يعرف الذى يريده، ويسعى إليه بثقة وإيمان. لاياحبيبى، لسنا على صعيد واحد. لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسى. فكيف تريدنى أن أستطيع السير على جانبك، قدما واحدة، فى الطريق الشاق الذى ستسلك؟ إننى لا أنتمى إلى جيلكم، جيل وجيل فؤاد وربيع وأحمد وصبحى وعدنان.لا، لن أذهب معك. إن بوسعى الآن أن أتمثل نفسى إذا رافقتك.ستجرجرنى خلفك. سأعيق طموحك.سأكون أنا فى السفح وتكون أنت فى القمة.فامض قدما ياحبيبى، ولا تلتفت إلى ما وراءك.

أما أنا فأستمد دائما من حبى لك، هذا الذى تصهره الآلام، وقودا يشع على، فينسينى شقاء عيشى، وزادا أتبلغ به حتى أيامى الأخيرة. فدعنى هنا أتابع طريقى حتى النهاية، وعد أنت يا حبيبى العربى إلى شرقك البعيد الذى ينتظرك، ويحتاج إلى شبابك ونضالك»..

جانين..

ونصادف أيضا جدلية الذكورة والأنوثة وثنائية الشرق والغرب والجهل والعلم جلية أيما جلاء ووضوح فى رواية يحيى حقى «قنديل أم هاشم»، والتى تصور التقابل الحضارى المتفاوت بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية من خلال التقابل بين شخصية إسماعيل الروحانية وشخصية مارى المادية.

ونجدها كذلك فى رواية «الغربة» للكاتب المغربى عبد الله العروى، والتى تصور خيبة إدريس فى علاقته بمارية التى تخلت عن المبادئ التى كان يؤمن بها إدريس كالنضال ضد الاستعمار، واحترام مكونات الأصالة المغربية، والتشبث بالقيم الدينية والأخلاقية. لكن مارى هاجرت مع إدريس إلى أوربا بمعية صديقتها لارة الخائبة هى بدورها.ويعنى هذا أن الرواية تنقل لنا شخصية إدريس فى صراعها مع الذات والموضوع على حد سواء. تتلذذ بالإخفاق والفشل العبثى باعتبارها شخصية إشكالية سلبية عاجزة عن تغيير الواقع المتردى فى شتى مجالاته. كما تصور الرواية مرارة اليأس والحيرة بين الماضى والحاضر، وبين القيم الغربية من ناحية والقيم العربية والتقاليد والأخلاق الموروثة من ناحية أخرى. زد على ذلك، تعكس الرواية الازدواجية الحضارية بما فيها ظاهرة الاستعمار، وجدلية الذات والآخر، وعلاقة الشرق بالغرب. وبالتالى،

تقدم الرواية وعيا شاملا بالقضايا الاجتماعية المغربية فى علاقتها بالحضارة الاستعمارية، وتصور الرواية كذلك آمال المغاربة فى الاستقلال السياسى، وآمال بعضهم فى الغد المأمول.

وهذا التقابل الحضارى يترجمه عبد الله العروى مرة أخرى فى روايته الذهنية «أوراق» كما فى فصلى «العاطفة» وفصل «وجدان»، حيث سيدخل إدريس فى علاقات غرامية وجدانية وعاطفية ورومانسية ستنتهى بالفشل، وذلك لتضخم الأنا والطغيان الذهنى لدى إدريس فى خطابه التواصلى مع المرأة الغربية.

كما نجد جدلية الذكورة (الفحولة) والأنوثة (المرأة) فى رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» عند الكاتب السودانى الطيب صالح، والتى ترصد لنا مصطفى سعيد مهاجرا إلى إنجلترا من أجل تحصيل العلم. بيد أن هذه الشخصية المحورية ستتخذ من الفحولة الجنسية والشبقية وسيلة للانتقام والثأر من مجموعة من الإنجليزيات، وذلك تعبيرا عن رغبته فى تصفية حساباته الشعورية واللاشعورية مع المستعمر، والذى كان قد فرض هيمنته لأمد طويل على بلد السودان باستغلال خيراته، واستعباد شعبه، وإذلال أهله.

وترد هذه الجدلية كذلك فى رواية «قدر يلهو» للكاتب السورى شكيب الجابرى الذى انتقل بطله هذه المرة إلى برلين حيث المعسكر الاشتراكى، فيقيم تقابلا حضاريا بين الغرب والشرق من خلال العلاقة العاطفية بين البطل وعشيقته إلزا.

ومن الروايات الأخرى التى تحمل فى مضانها رؤية حضارية، وذلك من خلال التقابل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية رواية

«أصوات» لسليمان فياض، والتى جسد فيها الكاتب انبهار القرويين المصريين رجالا ونساء بحضارة الغرب، وذلك فى صورة «سيمون» زوجة حامد البحيرى، والتى كانت تبدو متفوقة حضاريا ومدنيا.

وتحضر هذه الصورة النمطية الحضارية كذلك فى رواية «فى الطفولة» لعبد المجيد بنجلون، والذى يقابل فيها بين بيئتين مختلفتين حضاريا ودينيا واجتماعيا وتربويا: البيئة الإنجليزية المتقدمة والبيئة المغربية المتخلفة. أى إن الكاتب يستحضر فى نصه الأطوبيوغرافى فضائين متقابلين: فضاء إنجلترا وفضاء المغرب، وبتعبير آخر يذكر فضاء مانشستر وفضاء فاس. وهنا نسجل جدلية الداخل والخارج، وجدلية الانفتاح والانغلاق، فضلا عن جدلية التغريب والتأصيل. كما يدل الفضاءان على الصراع الحضارى والثقافى والدينى. وتتقابل الأمكنة العامة والخاصة للإحالة على مجموعة من القيم والسمات المتقابلة كالتطور والتخلف، والعلم والجهل، والمادة والروح، والبداوة والحضارة..

ويمكن اعتبار «فى الطفولة» لعبد بن جلون نصا روائيا، وذلك لكونه يجمع بين التوثيق والتخييل، ويتأرجح بين المتعة الفنية وسرد الحقائق التاريخية. كما أن النص يخضع لكل مقومات الحبكة السردية وخصائص الكتابة الروائية، فضلا عن توظيف خاصية التشويق والإمتاع الفنى، وتطويع السرد لخدمة المضمون والاعتراف الذاتى. ومن ثم يمكن القول: إن «فى الطفولة» كتاب يجمع بين السيرة الذاتية والكتابة الروائية.

وثمة نصوص حضارية أخرى كرواية «نيويورك ٨٠» ليوسف إدريس، ورواية «فتاة من هيل» للكاتب السعودى محمد عبده يمانى، ورواية

«من دفتر العشق والغربة» لجمال الغيطانى، ورواية «العودة إلى المعبد» لنبيل نعوم، ورواية «القاهرة...باريس ذهاب.. عودة» لسهير توفيق، بله عن روايات عديدة أخرى لا داعى لذكرها تناولت ثنائية الشرق والغرب، وذلك بشكل من الأشكال..

وبناء على ما سبق، تندرج هذه النصوص السردية كلها ضمن الرواية الحضارية، والتى تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب.أى إن الرواية الحضارية هى التى تجسد العلاقة بين الأنا والآخر، وترصد اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب تخيلا وإبداعا وتشخيصا، وذلك على مستوى العادات والتقاليد والأعراف والأديان والمعطيات الثقافية والمادية والعلمية والفنية والأدبية والتقنية. وهذه العلاقة التى حددتها هذه النصوص الروائية المذكورة غالبا ما كانت تخضع سيميائيا على مستوى الرغبة (رغبة الذات فى موضوع ما) لقانون الاتصال (الحب والغواية والافتتان والانبهار والجنس).. والانفصال (الفراق والطلاق والعودة إلى البلد الأصلى، والتشبث بالقيم الشرقية، والتأقلم مع عوائد وتقاليد الشرق)..

٣- الرؤية السياسية والحقوقية:

نقصد بالرؤية السياسية والحقوقية تلك النظرة المبنية على تشخيص النظام السياسى لدولة ما، وتبيان طبيعة الحكم والدستور، ورصد علاقة الحاكم بالمحكوم سياسيا ومدنيا وعسكريا وحزبيا ونقابيا، وتشخيص الحالة السياسية للدولة، وتبيان وضعية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان.

ومن هنا، فثمة مجموعة من الروايات العربية التى نظرت إلى علاقة الأنا بالغرب من زاوية سياسية، فاعتبرت الغرب مكانا للحرية الحقيقية، وفضاء للحرية والديمقراطية، وحضنا حميميا لحقوق الإنسان، وملجأ سياسيا خيرا للاحتماء من الاستبداد العربى، والوقاية من رعبه وقهره وعنفه وقمعه المتسلط، والهروب قسرا واضطرارا من بلدان الطغيان السياسى والجبروت السلطوى نفيا وتحررا وانعتاقا واستقرارا.

ومن الروايات التى تحمل رؤية سياسية انتقادية تجاه هذه العلاقة الشائكة بين الشرق المتخلف سياسيا والغرب المتقدم مدنيا وحضاريا رواية «شرق المتوسط» للكاتب العربى المعروف عبد الرحمن منيف، والتى تصور رجب إسماعيل وهو منبهر بحضارة الغرب أيما انبهار، ومعجب بمدنيته أيما إعجاب، فيفتتن بسياسته العادلة، وتشبثه بالديمقراطية الحقة وحقوق الإنسان. فى حين يصف دول شرق المتوسط بالتخلف والاستبداد والبطش والقهر وقمع الذوات الداعية إلى ثورة التغيير، ولا سيما الذوات العضوية المثقفة الواعية. ويقول السارد متحدثا إلى أهل باريس: «لو جئتم بكتبكم على شاطئ المتوسط الشرقى، لقضيتم حياتكم كلها فى السجون، سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شىء، وتدفعون ثمن الكلمات حياتكم كلها فى السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل، والتيفود وتموتون».

ونجد هذه الرؤية السياسية الانتقادية واضحة أيضا لدى الروائى المصرى صنع الله إبراهيم فى روايته «نجمة أغسطس»، حيث يرصد جدلية الأنا بالآخر، وذلك عبر المقابلة بين الإنسان المصرى والآخر

الروسى، فالأول يهدده الفقر والداء والقمع، بينما يعيش الثانى فى سعادة وغنى ونعيم. كما يذكر الكاتب العلاقات اللامتكافئة بين مصر وروسيا، وينتقد التصور الإيديولوجى الاشتراكى الزائف عبر نسج حبكة غرامية بين البطل وعشيقته تانيا.

أما الكاتب السورى حنامينه فى روايته «رحلة الربيع والخريف»، فينبهر بحضارة المجر، ويشيد بالتجربة الاشتراكية فى هنغاريا، ويدين سياسية الاعتقال والقمع والفقر والتجويع فى بلدان الشرق والاستبداد والقهر. ويقابل بين الشرق المتخلف الضائع والغرب الاشتراكى المتقدم من خلال تجربة عاطفية رومانسية بين الراوى (الخريف) وبيروسكا (الربيع). ولم تنته هذه العلاقة الرومانسية إلا بعودة كرم إلى بلده بعد الحرب العربية الإسرائيلية. وبعد وصوله إلى دمشق، سيزج به المخبرون فى السجن عقابا له على نضاله السياسى اليسارى.

٥- الرؤية العدوانية:

تستند الرؤية العدوانية إلى اعتبار الغير أو الآخر مخالفا أو مقابلا للأنا أو الذات. وبالتالى، فالغير يحاول تغريب الذات وإقصاءها وتهميشها، مع ممارسة العدوان والنبذ والحقد ضدها.فيصبح الغير هنا جحيما لا يطاق. لذا، تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلى. وهذه النظرة العدائية السلبية غالبا ما تفرز حسب هيجل فى حالة انتصار أحد منهما إلى ظهور ما يسمى بجدلية السيد والعبد.

وعليه، فالعلاقة بين الأنا والآخر لا تكون دائما علاقة إيجابية قائمة على الأخوة والمحبة والصداقة والتعايش، بل قد تكون علاقة سلبية

قائمة على الكراهية والعدوان كما نجد ذلك فى رواية فدوى طوقان «الرحلة الأصعب»، والتى تحمل صورة عدائية للآخر مبنية على النبذ والاحتقار والازدراء. ويعنى هذا أن شخصية الرواية المحورية شخصية فلسطينية تعرضت كباقى شعبها للتشريد والتعذيب والتغريب والعدوان والطرد من أرضها المحتلة بسبب مكائد الغير أو الآخر الصهيونى المستغل، لذلك تولدت فى نفسيتها مشاعر الحقد والكراهية والعدوان تجاه الآخر، ألا وهو الصهيونى المحتل الظالم والغاشم. ومن هنا، «فنص فدوى طوقان» «الرحلة الأصعب» «هى سيرة ذاتية ذهنية يختلط فيها التاريخ بالأدب، والتوثيق المرجعى بالمعطى الأدبى والنقدى. كما أن هذه السيرة هى سيرة المقاومة والصمود والنضال والتوثيق للكتابة الأدبية بفلسطين المحتلة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م».

ومن ثم، تحمل هذه الرواية الأطوبيوغرافية فى طياتها رؤية سلبية قائمة على الصراع الجدلى والعدوان الوجودى والكينونى والحضارى والدينى بين الذات الفلسطينية والآخر الصهيونى. وينطبق هذا الحكم على الكثير من الروايات الفلسطينية، وخاصة روايات غسان كنفانى، ولاسيما روايته الرائعة: «عائد إلى حيفا»..

وتظهر هذه الرؤية العدائية والصدامية أيضا فى رواية «أمواج البحر» للكاتب المغربى مصطفى شعبان، والتى ترصد لنا صورة مغترب كان يحلم منذ صغره فى المدرسة أن يكون طبيبا، وقد سعدت الأسرة أيما سعادة بهذا الحلم. وكافح الفتى وثابر فى دراسته حتى حصل على قسط من التعليم، ليجد نفسه فى بلده بين أنياب البطالة والفقر ينخره الضياع

والعبث واليأس واللاجدوى. وليس أمامه من حل سوى ركوب الموج وأخطاره للبحث عن لقمة الخبز فى باريس العمل والأمل والأحلام. بيد أن رحال منير لم يكن إلا هاربا سريا يخالف قوانين الهجرة، ويسبب متاعب كثيرة للبلد المضيف. لذلك، أصبحت حياة رحال جحيما لا يطاق، حتى إن حجرته صارت كسجن «للحراقين» الهاربين، وقفص للمتهمين النازحين من قارة البشر والمديونية والتخلف وانعدام فرص العمل وحقوق الإنسان. ومن ثم، تصبح حياة رحال فى باريس محسوبة الخطوات، ومدروسة بدقة، يتراقص أمام عينيه طيف المراقب ولعنة السجن وعاقبة الطرد، وما سيعانيه فى بلده من مآس وصدمات عضوية ونفسية واجتماعية وأخلاقية: «داخل هذه المملكة الخيالية تعيش حراقا فى باريس، تنصب لنفسك مخرجا، ترتب الأدوار التى تسعفك فى كل تحرك.. تتدبر تنقلاتك اليومية.. كيف تمشى.. الملبس الذى يقتضيه تحركك.. كيف تعود.. الرزانة المطلوبة فى كل خطوة تخطوها حتى تبدو بالمظهر المتزن، وحتى لا تثير الشبهة والأنظار من حولك.

أعيش فى باريس كطائر يغدو فى الصباح ولا أدرى أأعود إلى حجرتى أم لا أعود..؟! حجرتى المسكينة لا يحلو لى الاهتمام بها ولا السهر على ما تستحقه من ترتيب».

ويعيش رحال انفصاما سيكولوجيا وانفصالا مزدوجا على المستوى الذاتى بسبب التمزق النفسى بين البر والبحر، وبين الأنا والغير. وهذا ما يجعل هذه الرواية يغلب عليها المسرود الذاتى والمناجاة والمنولوج. ويمكن إدراجها ضمن الروايات النفسية أو المنولوجية القائمة على الصراع

النفسى، والتآكل الذاتى، وتشظى الذاكرة، وتقاطع الذهن والوجدان، وصراع الأنا واللاشعور. ويتغلغل إيقاع الموج فى نسج سمفونية رحال وراء شعوره المنساق مع مدة الخوف وقلق الموت وعبث الحياة ولعنة الطرد، حتى إن روايته وسيرته عبارة عن مد من الأمواج التى تعلن موته وضياعه، وتضع حدا لطموحاته، وتجعل حياته نسقا من الروتين والتكرار الممل والفراغ اللامجدى والتتابع المخيف.

ويلهث رحال وراء العمل والآخر والغير والأنثى لتكسير وحدته وغربته، والبحث عن معنى لحياته وكينونته ووجوده فى باريس، ولكن بدون جدوى مادام مهاجرا سريا بدون هوية وأوراق تحدد وضعه الوجودى. لذلك، سيبقى رحال فى ملجئ النسيان والفقدان بدون ذاكرة ولا انتماء، حيث تنشب الغربة فى صدره أنيابها الحادة والدامية. وتصبح اللازمة الروائية «طائر أنا أغدو فى الصباح ولا أعرف أأعود إلى حجرتى أم لا أعود...؟!» عقدة الحبكة السردية وبؤرتها الحكائية. وترتكز هذه الحبكة على ثنائية الارتحال والعودة فى علاقتها بالزمان والمكان والإثبات والنفى.

وقد أحس رحال باستغلاله فى العمل من قبل المسئولين عن أوراش الحفر، واستلابه وتحويله إلى أداة للحفر والبناء، وذلك دون أن يستفيد مما يستفيد منه عمال الشركات الذين يملكون تراخيص قانونية وعقود العمل المشروعة. وعندما لا يجد رحال العمل فى أوراش الحفر يتعرض للخوف والقلق والعزلة وكآبة الوحدة، وتتجمع حوله هموم الذات والمكان.

ولم تنفعه معاشرة خلانه من أصنافه الهاربين بواسطة قوارب الموت، ولا زيارة أهله وأقاربه المنشغلين بعملهم وقوت حياتهم، ولا زكية التى

اعتقدها الخلاص وبر الأمان، إذ وجدها فى الأخير «حراقة» مثله تبحث عن العمل وزوج سيضفى عليها مشروعية البقاء وكينونة الانتماء والاندماج فى باريس الأحلام والسراب.

وينعدم فى هذا النص الروائى مكون الوصف، ويعوض ذلك بمجموعة من الأحداث وتفاصيل يوميات رحال، واستقراء حالاته النفسية عبر إيقاعات متموجة تمد صاحبها بالتوتر والدرامية وشحنة القلق وأزمة الخوف من المستقبل المجهول. لذلك، تتداخل الأزمنة فى الرواية لتشكل مفارقات جنائزية وسراديب من السراب والموت البطىء لإنسان دائم فى ارتحال واغتراب.

وإذا كان ماضى رحال هو زمن الأحلام والآمال والفتوة، فإن حاضره يتسم بالاغتراب والعذاب والتآكل الذاتى والقلق والخوف من المجهول والمصير الضائع، وكأن مستقبله فى استشراف رحيله وطرده وموته باعتباره ذاتا نكرة مجهولة لا قيمة لها فى عالم الاغتراب والقيم المادية، مادامت علاقة الأنا والغير قائمة على الصراع وجدلية السيد والعبد.

وإذا كانت باريس طه حسين وتوفيق الحكيم مدينة الجن والملائكة وسحر المعرفة وحضارة العقل والحرية، فإنها بالنسبة لرحال وأمثاله «الحراقين» والمهاجرين السريين ليست سوى جحيم الموت والضياع والاستغلال والاغتراب والقلق والخوف ومصادرة حقوق الذوات المجهولة والكائنات النكرة. ومن ثم، تصبح باريس بشوارعها وحجراتها وفضاءات الميترو ومقاهيها وحاناتها وميادينها فضاء عدائيا كابوسيا يشحن رائده بعقدة النقص والخوف والعبث.